

نظرة المصادر الفرنسية لصراع الطريقة القادرية والتيجانية وتأثيره على مقاومة الأمير عبد القادر

1832-1847 (سانت آرنو وليون روشن أمونجا)

The view of French sources on the conflict of the Qadiriyya and Tijaniya orders and its impact on the resistance of Emir Abd al-Qadir 1832-1847 (Saint Anne and Léon Roche are examples)

سيدي محمد رامي

مخبر الدراسات والبحوث التاريخية في التراث والحضارة

جامعة خنشلة (الجزائر)

ramimed2013@gmail.com

يوسف بولعباز*

مختبر دراسات في التاريخ والثقافة والمجتمع

جامعة خنشلة (الجزائر)

boulabeiz.youcef@univ-khenchela.dz

الملخص:

معلومات المقال

لقد تناولت الكتابات الفرنسية العسكرية منها والأكاديمية كل الجوانب المتعلقة بمقاومة الأمير عبد القادر، ومن بينها الجانب الروحي وما تعلق بالعلاقات التي كانت تربط الطريقة القادرية بالطرق الصوفية الأخرى، ومثال ذلك علاقة التناقض التي عرفتها هذه الأخيرة مع الطريقة التيجانية، حيث انكببت الأفلام الفرنسية على استغلال هذا الصراع خدمة لمصالح الإدارة الاستعمارية ومشروعها الاستيطاني في الجزائر. ومن الذين كتبوا حول الخلاف الذي دار بين الطريقة القادرية والتيجانية سانت آرنو والجاسوس ليون روشن، فقد كانت كتابتهم تحمل تحالماً كبيراً على الأمير عبد القادر ومقاومته، وتهدف إلى تمكين الطرق الموالية لفرنسا من السيطرة، رغبة في قتل روح المقاومة في نفوس الجزائريين.

تاريخ الارسال:

2024/07/16

تاريخ القبول:

2024/09/20

الكلمات المفتاحية:

✓ القادرية

✓ التيجانية

✓ المصادر الفرنسية

✓ سانت آرنو وليون روشن

Abstract:

Article info

French military and academic writings have dealt with all aspects related to the resistance of Emir Abdul Qadir, including the spiritual aspect and the relationships that linked the Qadiriyya order to other Sufi orders. An example of this is the relationship of discord that the latter experienced with the Tijaniya order, as French pens devoted themselves to exploiting this. The conflict serves the interests of the colonial administration and its settlement project in Algeria. Among those who wrote about the dispute that took place between the Qadiriyya and Tijaniya orders, Saint Arnaud and the spy Leon Roche, their writing carried great prejudice against Emir Abdelkader and his resistance, and aimed to enable the pro-French orders to take control, out of a desire to kill the spirit of resistance in the souls of the Algerians.

Received:

16/07/2024

Accepted:

20/09/2024

Key words:

- ✓ Qadiriyyah
- ✓ Tijaniya
- ✓ French sources
- ✓ Saint Arnaud & Leon Roche

* المؤلف المرسل

مقدمة

لقد كان للطرق الصوفية عبر تاريخ المقاومات الشعبية الجزائرية المساهمة البليغة في مواجهة التغلغل الاستعماري الفرنسي وإعاقة تقدمه وسط نفوذه على الأرض الجزائرية، فالبعد الروحي لهذه الطرق (القادرة، الرحمانية...) مكن من الحفاظ على المقاومة مستمرة بأن جعلها تحظى الاستمرارية والديمومة طيلة القرن التاسع عشر، الشيء الذي دفع العدو الفرنسي إلى إذكاء نار الفتنة بين هذه الطرق واستغلال خلافاتها المذهبية من أجل القضاء على المقاومة الشعبية.

إن ما يشد انتباه الباحث أو المؤرخ ضمن هذا السياق هو الصراع الذي دار بين الطريقتين القادرية والتيجانية، والذي ألقى بظلاله على مقاومة الأمير عبد القادر، إذ كان منعجاً حاسماً في مسيرة هذه المقاومة، ونظرًا للأهمية الكبيرة لهذا الصراع التي تجلّى في الانعكاسات المتربطة عنه فقد تطرقت إليه العديد من الكتابات سواء كانت محلية أم أجنبية، لكن ما يهمنا في دراستنا هذه تحديداً هو ما دونته المصادر الفرنسية حول هذا الصراع وبالأخص كتابات "سانت آرنو" و"ليون روش"، ولمعالجة هذا الموضوع طرحتنا إشكالية تمحورت حول: دور الكتابات الفرنسية في استغلال الصراع الطرقي لصالح المشروع الاستعماري ضد المقاومات الشعبية.

من خلال هذه الإشكالية طرحتنا العديد من التساؤلات وهي:

- ما هي أهم توجهات الطريقة القادرية والتيجانية؟ وما هي خلفية الصراع بين الطريقتين؟

- إلى أي مدى التزمت الكتابات الفرنسية الموضوعية التاريخية في معالجتها للصراع الطرقي؟

يتمثل هدفنا من هذه الدراسة في محاولة تبيان دور الكتابات الفرنسية خاصة العسكرية منها في خدمة المشروع الاستيطاني وتشويه صورة المقاومات الشعبية الجزائرية من خلال رميها باتهامات متعددة لإفراغها من بعدها الروحي، إضافة إلى توضيح كيفية استغلال المصادر الفرنسية لأخطاء زعماء المقاومة، وللإجابة على التساؤلات السابقة ورغبة منا في الوصول إلى الأهداف المسطرة اعتمدنا على المنهج التاريخي كونه ركيزة البحث الأساسية والمنهج التحليلي من أجل معالجة المادة المصدرية التي عايشت الحدث.

1. التعريف بالطريقة القادرية والتيجانية

1.1. التعريف بالطريقة القادرية

يعود انتساب الطريقة القادرية إلى الشيخ "عبد القادر" بن أبي صالح موسى بن أبي عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض (القططاني، 1417هـ، ص. 26)، المولود "بجيلان" سنة 479هـ/1078م، عرف عبد القادر الجيلاني بالزهد والتصوف (تمساني، 1998، ص.47)، وحب العلم فقد أمضى أكثر من ثلاثين سنة متعلماً لينتقل بعدها إلى التدريس والوعظ (القططاني، 1417هـ، ص.32)، غير أن من جاء بعده من أتباعه جاندوا الجادة وحدوا عن طريق الكتاب

والسنة النبوية وأحدثوا ما أحدثوا من بدع وغالوا في شيخهم إلى درجة الشرك بأن جعلوه ندا الله رب العالمين (السهلي، 1426هـ، ص.85).

يذكر "لوي رين" في كتابه مرابطون وإخوان أن عبد القادر الجيلاني ذو نسب شريف، فهو يرتبط بالنبي ﷺ من طريق علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما أنه ذو خلق دمث، متواضع ومحب للقراء وناصر لهم، من أقواله المأثورة: "يجب أن نصلّى ليس من أجل أنفسنا فحسب، بل لجميع من خلقهم الله"، لم يكن معادياً للنصارى لا تلميحاً ولا تصريحاً، بل كان إذا ذكرهم أبدى أسفًا على ضلالهم الديني وسأل الله أن يهديهم، كما عرف عن الجيلاني خوفه من الكذب والنفاق وهنا يروي رين قصة عجيبة في صدقة، حدثت له وهو صغير السن، فلما كان قاصداً "مكة" مع قافلة من أهل بلدته تعرض لهم قطاع الطرق وسائلوه عما إذا كان يحمل معه مالاً؟ أجابهم بصدق "نعم معنِّي" وقال لهم "أوصتني أمي بعدم الكذب أبداً"! . (Rinn, 1884, pp. 173-175)

انتشرت الطريقة القادرية انتشاراً واسعاً لتطرق أبواب المغرب العربي في حدود سنة 1174م عن طريق الشيخ "أبي مدین شعیب" الذي كانت له يد الفضل في ذلك، وفي فترة حكم الأتراك العثمانيين ونتيجة دعمهم لها عرفت هذه الطريقة إقبالاً كثيراً للمريدين وتوافداً كبيراً للمحبين، وأصبحت زواياها موجودة في أغلب جهات الجزائر، وكان لزاوية القيطنة التي أسسها جد الأمير مصطفى الغريس سنة 1785م بالغ الشهرة وعظمي الأهمية (تلمساني، 1998، ص.46)، وعلى الرغم من أن مركز الطريقة القادرية كان في بغداد إلا أن هذا لم يمنع من تزايد فروعها في الجزائر، فقد وصل عددها حسب إحصاءات سنة 1882م 29 زاوية و268 مقدم، ويدرك لوي رين أن الطريقة القادرية التي كانت في مواجهة مع فرنسا، قد أصبحت مهادنة ومعينة له مع مرور الوقت، حيث ينسب لها الفضل في القضاء على انتفاضة الأوراس سنة 1879 وذلك بوقوف قائدتها سي محمد بلعباس مع القوات الفرنسية. (Rinn, 1884, p. 200) .

2.1. الطريقة التيجانية

تنسب الطريقة التيجانية إلى أبو العباس الشيخ "أحمد التجاني" المولود سنة 1737م والذي عرف بحبه للعلم (زيزاح، 2014، ص.72)، ومن أجل ذلك كان يسافر ويلتقي بالشيوخ والعلماء، ثم ازداد طموحه وبلغ درجة إنشاء طريقة صوفية جديدة يكون لها فضل ومقام يختلف عن باقي الطرق (شيخ وغرور، 2016، ص.2)، وأخذ يمهد لذلك عندما بدأ يسرد ما يرى في المنام ما يدل على أن له شأن عظيم وما قاله: "رأيت وأنا صغير قبل البلوغ بأنه انتصب لي كرسي المملكة وأنا جالس عليه ولني عساكر كثيرة وأنا أصرفها في قضاء الحاجات كأني ملك" وقال أيضاً: "رأيت رؤيا تدل على حالي كله وذلك أنني رأيته رحمه الله راكباً على حصان فقلت وأنا ذاهب نحوه: إن سلمت عليه وهو فوق الحصان لم أدرك مرادي إلا بمشقة، وإن سلمت عليه غير راكب فأدرك مرادي من غير تعب، فلما وصلته رحمه الله نزل من فوق الحصان وسلمت عليه" (حرازم، 1997، ص.42).

ومما ذكره الشيخ أحمد التجاني أنه رأى الرسول ﷺ يقظة ومن عليه بأن أعطاه ورداً جديداً وطلب منه أن يلقنه لمن أراده وأمره بأن يدع كل ما أخذه من الطرق الصوفية الأخرى، وهذا ما جعل التجاني يفند كل قول يقول بأن طريقته مأخوذة من مختلف الطرق السابقة، بل بلغ به الأمر إلى الادعاء بأنه ذو علم غزير ولا يوجد من بعد قرن الصحابة رضي الله عنهم من هو أعلم منه.

وبهذا استطاع التجاني في مدة وجيبة أن يتمكن من تأسيس طريقة صوفية جديدة وتشييد العديد من الروايات، وتمكن طريقته من التوسع والانتشار والسيطرة على الطرق التجارية الحيوية في الصحراء، (تلمساني، 1998، ص ص. 71-72) ثم السعي في إقامة علاقات مع "إفريقيا الوسطى" والطوارق و"السودان"، وهذا حتى بلغ التجاني بلاد شنقيط غرب أدرار وتمبكتو، الشيء الذي سمح بتدفق الثروات الكبيرة إلى "تيماسين" و"عين ماضي" (Rinn, 1884, p. 424).

أما عن علاقة الطريقة التجانية بالإدارة الفرنسية الاستعمارية فاتسمت بالمهادنة، حيث وصفت الطريقة الاحتلال بأنه قضاء وقدر، ولابد من التسليم بذلك، وهي بهذا مهدت للارتماء في أحضان السلطة الاستعمارية لعلها تناول بعض الامتيازات، هذا النهج يؤكده تواصل الشيخ محمد الصغير التجاني شيخ زاوية عين ماضي بالحاكم العام الفرنسي "فاللي" مع مطلع سنة 1839 رغبة في التأثر من الأمير عبد القادر الذي قام بنفس قصر عين ماضي، معترفاً بذلك ضمنياً بسلطنة فرنسا على الجزائر (تلمساني، 1998، ص ص. 198-201).

2. خلفية الصراع بين الطريقتين

1.2. الخلفية الدينية

يعود الصراع الذي عرفته الطريقة التجانية والقادرية إلى الاختلاف في العقائد، فالتيجانية ومع ظهورها ادعى مؤسسها أن وردها ذو مقام رفيع لا يضاهيه ورد أي طريقة، كونه متلقى من الرسول ﷺ، ومن الأمور كذلك التي وقع الخلاف حولها هو ذكر البسمة قبل قراءة سورة الفاتحة في الصلاة وهي مسألة مختلف فيها عند الأئمة الأربعية فالإمام "الشافعي" يرى الإتيان بها مع الجهر بينما ذهب "أبو حنيفة" إلى عدم الجهر بها، أما "الإمام مالك" وأحمد بن حنبل" فذهبوا إلى عدم الإتيان بالبسمة لا جهراً ولا سراً.

لقد دفعت مسألة البسمة الأمير عبد القادر إلى مكانته "محمد الصغير التجاني" متهمًا إياه بمخالفة الإمام مالك والخروج عن مذهبه، كما توعده باستخدام القوة إن بقي مصراً على الإتيان بالبسمة قبل سورة الفاتحة في الصلاة، لكن نجل أحمد التجاني لم يأبه لهذا التهديد ذاكراً أن المسألة خلافية اجتهادية بين المذهب المالكي الذي يرى الكراهة في ذكرها والمذهب الشافعي الذي يبطل الصلاة في حال عدم الإتيان بها، ومن هذا المنطلق فضل محمد الصغير الكراهة على البطلان (تلمساني، 1998، ص. 162).

2.2. الخلفية السياسية

تتضخ الخلفية السياسية للصراع بين الطريقة القادرية والتيجانية بوضوح فاقع من خلال بعض العبارات التي كان الأمير عبد القادر يستعملها في مرسالاته، ومثال ذلك الكتاب الذي بعث به إلى وكيله في وهران الحاج الطيب، إذ تضمن ما يلي: "وإذن فقد استعملنا حق سيادتنا، وكنا على أية حال الطرف المعتمد عليه...", فهذه الجملة تدل على أن الأمير كان يرى أنه أحق بالسلطة السياسية من منافسيه التيجانيين (شرشل، 1974، ص.132)، من جهة أخرى فإن محمد الصغير التجاني كان يعارض ترعم الأمير عبد القادر لمشروع المقاومة وطرد الاستعمار الفرنسي من الجزائر، ولم يكن يرى أنه مخول لهذه المهمة، بل كان ينظر أن الجدير بالسلطة السياسية هم التيجانيون كونهم كانوا في احتراب دائم مع الأتراك العثمانيين، وبفضل ذلك استطاعوا فرض سيطرتهم على منطقة الجنوب، فهم بذلك أصحاب سيادة ولا يحق للأمير ولا غيره أن ينزعهم في هذا الأمر (تنمساني، 1998، ص.163-164).

3. نماذج من الكتابات الفرنسية حول صراع القادرية والتيجانية

إن المتأمل في الكتابات الفرنسية التي عايشت صراع الأمير عبد القادر مع التيجانية-سواء العسكرية منها أو الأكademie- يجدها منحازة خادمة لمصلحة الإدارة الفرنسية الكولونيالية، حيث استغلت حالة الاحتقان بين الطرفين لإذكاء نار الفتنة بينهما من جهة واستنزاف قوة جيش الأمير ماديا ومعنويا وتشويه صورته من جهة أخرى. لقد تطرق الكثير من الكتابات الفرنسية لموضوع الخلاف بين الأمير عبد القادر والتيجانية، ومن بينهم الكاتب لوبي رين الذي تحدث عن موقف التيجانيين من الاحتلال الفرنسي عموما ومن مقاومة الأمير عبد القادر على وجه الخصوص، موضحا أن التجاني كان مهادنا لفرنسا غير راغب في مواجهتها، كونه يعتبر الاحتلال قضاء وقدر، ولا مناص من الفرار من أقدار الله، كما بين رين أن محاولات الأمير لإخضاع التجاني قبل بدأت سنة 1836 أو قبلها بقليل، لكنه فشل في مساعيه المتكررة بسبب تمسك سي محمد الصغير بطريقته ورفضه أن يكون تحت إمرة الأمير عبد القادر، ورغم أن رد التجاني على المراسلات كان مليئا بعبارات الاحترام إلا أن هذا لم يثن الأمير عن هدفه، ففي 05 جوان 1838 الموافق لـ: 12 ربيع الأول 1254 وبعد المراسلات غير المجدية عسكر جيش الأمير تحت أسوار عين ماضي وبدأ الحصار الذي دام ثمانية أشهر، واستطاع الأمير بعدها أن يكسر صمود التيجانيين بدخوله المدينة في جانفي 1839، أما التجاني المهزوم فقد لجأ إلى الأغواط وبدأ في ربط الاتصال مع فرنسا من أجل استعادة عين ماضي - (Rinn, 1884, pp. 425-426).

1.3. صراع القادرية والتيجانية من خلال رسائل سانت آرنو

1.1.3. التعريف بسانت آرنو

ولد سانت آرنو (Saint-Arnaud) بباريس فرنسا في 20 أوت من سنة 1798، درس في ثانوية نابليون، تزوجت والدته بعد وفاة أبيه من قاض اسمه (Forcade-la-Roquette)، وكان ذلك سنة 1811

وفي عام 1815 عندما بلغ آرنو السابعة عشر من العمر انضم إلى فرقه الحرس الملكي الخاص (الحراس Compagnie de الشخصيين) (Saint-Arnaud, 1864, p. 2)، فكان عضوا في فرقه غرامون (Gramont)، ثم عين بعدها في فرقه المشاة بمدينة "بريسٍت"، وبسبب سلوكه غير السوي طرد من الجيش وهو في سن الرابعة والعشرين (حرشوش، 2008، ص. 171) غادر بعدها إلى "اليونان" سنة 1822 للمشاركة في الحملة الصليبية ضد الأتراك العثمانيين، ليعود بعدها إلى صفوف الجيش برتبة ملازم ثان ثم عزل نتيجة أعمامه الطائشة ليستأنف حياة الترحال والمغامرة، انضم آرنو من جديد إلى الجيش عقب ثورة جوليلية 1830 بعد أن بلغ من العمر ثلاثة ثلاثين سنة، وفي سنة 1836 تم إرساله إلى الجزائر ضمن ما يسمى بالفيلق الأجنبي، لينزل أرض الجزائر لأول مرة في 15 جانفي 1837 (Saint-Arnaud, 1864, pp. 3-6)، وفي السنة نفسها شارك آرنو في الحملة العسكرية الفرنسية الثانية على "قسطنطينة" كما قاد حملتين على "فليب فيل" (سكيكدة) و"جيجل" على التوالي سنة 1839، ونظير ذلك وبعدها بسنة تم مكافأته بأن رقي إلى قائد كتيبة في فيلق الزواف.

كما أسندت لآرنو مهام عسكرية نوجزها فيما يلي:

- تنفيذ عمليات عسكرية في سهل متيبة بأمر من الجنرال "نيجري" (Négrier) والسهور على توفي الحماية لحوالي مائة عامل كانوا يعملون على شق طريق الدويرة.
- قيادة معسكرات بجيجل وكتيبتين لتأمين طريق عبور الجنود الفرنسيين من برج الأربعاء إلى موزايية.
- قيادة فيلق الزواف سنة 1840 وبعدها بستين رقي إلى رتبة عقيد وأسندت له القيادة العليا لمدينة مليانة مع الإشراف على جيش قوامه ألف جندي من المشاة وخمسين مهندس. (بستي و مسعودي، 2022، ص. 195).
- المشاركة في مجزرة الفراشيش (أولاد رياح) بجبل الظهرة إضافة إلى اعتقاله لبومعزة، ما مكنه من الترقية إلى رتبة ماريشال سنة 1847، وفي عام 1851 عين وزيرا للحرب، توفي هذا النزال سنة 1854 (حرشوش، 2008، ص. 172).

2.1.3 رسائل سانت آرنو Lettres du Maréchal de Saint-Arnaud

من المصادر التي يمكن الاعتماد عليها لتوضيح نظرة الكتابات الفرنسية لصراع الطرق هي الرسائل التي كتبها الماريشال سانت آرنو والتي طبعت في شكل كتاب من جزئين تحت عنوان Lettres du Maréchal de Saint-Arnaud، إضافة إلى مقالات نشرها في المجلة الإفريقية.

طرق سانت آرنو قبل حدثه عن العلاقة بين التيجاني والأمير عبد القادر إلى موقع عين ماضي وظهور الطريقة التيجانية بالمنطقة والشهرة التي حظيت بها لاحقاً، ما جعلها مزاراً ل مختلف القاصد الذين يلتمسون العلم والبركة من سيدى أحمد التيجاني، ثم تحدث عن هجوم باي وهران على القصر سنة 1783 ونتائجها، بعدها راح يسرد الأوراد والذكر الخاص بالطريقة التيجانية، لينتقل إلى الحديث عن الأمير عبد القادر حيث وصفه بالشاب الطموح المتحمس، الذي يرغب في إخراج الفرنسيين من الجزائر وإقامة دولة عربية، مشيراً

في الوقت نفسه إلى أن ما يسعى إليه الأمير بعيد المنال، ليس من السهل تحقيقه، معتبرا إصرار الأمير هذيان وعند مكابرة (Saint-Arnaud, 1864, pp. 354-360).

إن مشروع الأمير المتمثل في توحيد البلاد تحت راية واحدة حسب آرنو جعله يصطدم بالتيجاني الذي كان يرى نفسه صاحب طريقة ورثها عن والده وأخيه، وأنه يمثل سلطة روحية لن تتخذ بوعود الأمير عبد القادر الكاذبة ولن تخضع لمشروعه المزعوم، خاصة وأنه كان يعتقد بأنه قادر على أن يبقى مستقلا، ولو اقتضى الأمر به أن يتوجه إلى أقصى الصحراء، ليتجنب بذلك الدخول في صراع مع الأمير، وهو ما سعى إليه من خلال إرساله بعض الهدايا والإعلانات إلى الأمير عبد القادر تمثلت على وجه الخصوص في نوق وجمال (Saint-Arnaud, 1864, p. 165).

في أبريل 1838 وقعت حادثة زادت من حدة الاحتقان بين الطرفين، وهي قيام أتباع الأمير بالاستيلاء على حوالي ثلاثة رأس من إبل التيجاني، الشيء الذي دفع هذا الأخير إلى مراسلة الأمير عارضا عليه الموالة، مطالبا إياه الأمان وإرجاع إبله التي أخذت منه، متحججا بأنه لا يستطيع أن يسانده بشريا وسياسيا، لكن الأمير رد باستحالة إرجاع الإبل لأنها تستخدم في واجب شرعى وهو الجهاد في سبيل الله، كما وضح الأمير في رسالته أن التيجاني كان يتصنع الولاء فقط، فقد رفض دفع الزكاة على مرتين، معتبرا ذلك مبررا كاف لقتاله، ومما زاد في تلاشي الثقة بين الرجلين أن بلغ مسامع الأمير خبر تأهب التيجاني واستعداده لأى حملة عسكرية، الشيء الذي استفز الأمير خاصة في ظل وجود الوشاة وأصحاب الأراجيف الذين زادوا الهوة بين الرجلين (تلمساني، 1998، ص ص. 168-169).

يذكر سانت آرنو في رسائله أن الحملة العسكرية التي قام بها الأمير عبد القادر على قصر عين ماضي مقر التيجاني (بن التهامي، 2009، ص. 327)، عمل مستحسن وأمر يخدم الإدارة الفرنسية الكولونيالية، فمن المفيد بالنسبة لها أن يقتل العرب فيما بينهم ويتركون الجيوش الفرنسية في موضع المترفج، هذا وقد أشار صاحب الرسائل كذلك إلى أن انتصار الأمير ونجاح حملته العسكرية على عين ماضي وقضائه على التيجاني وأتباعه سيتمكنه من توسيع نفوذه وكسب حلفاء جدد، وفي حال هزيمته ستكون الأمور عكس ذلك تماما، أي أن الأمير سيستنزف قواه في صراع هامشي، الشيء الذي سيتمكن الجيش الفرنسي من استغلال الوضع، والسعى قدما في إضعاف مقاومته ثم القضاء عليها. (Saint-Arnaud, 1864, pp. 174-175).

و قبل هذه الاستعدادات كان الأمير عبد القادر قد عين ممثلا له (خليفة)، وهو "الحاج العربي بن الحاج عيسى" زعيم الأغواط الشرaque على الأرضي المتاخمة لغريمه "أحمد بن سالم" قائد الأغواط الغربية الموالي للتيجاني شيخ زاوية عين ماضي، الأمر الذي دفع خليفة الأمير إلى محاولة الإطاحة بأحمد بن سالم من خلال مكاتبته الأمير وتحريضه على التيجاني وزعمه أنه يريد منافسته من خلال بسط سلطته ونفوذه على الأرضي الجنوبي (الصحراء)، وهو الشيء الذي لم يتقبله الأمير عبد القادر، ورأى فيه تحد له، رغم أن الأمر في الحقيقة مجرد انتقام لا أكثر (دراعو، 2023، ص. 223).

وفي معرض حديثه عن الاستعدادات العسكرية للهجوم على التيجانية وقصر عين ماضي أشار سانت آرنو إلى أن معاهدة التافنة التي وقعت سنة 1837 بين فرنسا والأمير عبد القادر قد خدمت الأمير كثيرا، ففضلها تحصل على عتاد حربي، تمثل في مجموعة من المدافع (Saint-Arnaud, 1864, p. 177)، قدرت بثلاث قطع، إضافة إلى أربعة آلاف بندقية وكمية من البارود، هذا وقد قدر قواته العسكرية بتسعة آلاف جندي ما بين خيالة ومشاة (بستي ومسعودي، 2022، ص. 199)، كما ألمح سانت آرنو في معرض حديثه عن حملة الأمير عبد القادر إلى أن النصر الذي حققه على حساب التيجانية ودخوله عين ماضي قد جعله منتقلاً وغرس في نفسه الغرور.

2.3. صراع القادرية والتيجانية من خلال كتابات ليون روش

1.2.3. التعريف بليون روش

ليون روش جاسوس فرنسي الجنسية، مسقط رأسه مدينة "غرونوبيل" التي ولد بها بتاريخ 27 سبتمبر 1809 وتلقى تعليمه فيها حتى مرحلة الثانوية، أتم دراسته في ثانوية "تورنون" (Tournon) أين تحصل على شهادة البكالوريا عام 1828، ليتحقق بمعهد الحقوق بغرونوبيل نصف سنة فقط، فحبه للمغامرة وطموحه الواسع دفعه إلى دخول عالم التجارة الشيء الذي سمح له بزيارة عدة مدن مثل "مرسيليا" و"كورسيكا" و"سردينيا" و"جنوة".

في سنة 1832 ويطلب من والده الذي كان يملك مزرعة بسهل متيجة غادر روش فرنسا قاصداً الجزائر (Roches, 1904, p. 22)، وما إن وصل مدinetها حتى انكب على تعلم اللغة العربية لكي يسهل عليه التواصل مع الأهلالي الجزائريين العاملين بالمزرعة، بعدها عرفه أبوه بالحاكم العام للجزائر "دي ورفيغو" (Duc de Rovigo) الذي عينه ملازمًا في فرقـة الفرسان الخيـلة التابعة لـهيئة الحرس الوطني (مناصرية، 1990، ص ص. 14-15)، كما أدى روش دور المترجم في إحدى جلسات أعضاء اللجنة الإفريقية الأولى مع بعض الجزائريين، ليعين بعدها مترجماً ملحقاً رئيسياً من قبل "كلوزيل" وكان ذلك في حدود سنة 1835، ليصبح رفيفاً له في حملاته العسكرية مثل حملته على "المدية" سنة 1836 (مناصرية، 1990، ص ص. 16-17).

بعد توقيع الأمير عبد القادر لمعاهدة التافنة مع العدو الفرنسي في 30 ماي 1837 قرر روش أن يلتحق بالأمير ويعرض عليه العمل عنده معترفاً أن سمعة الأمير قد بلغت الآفاق، حيث وصل الأمر بأن أثنى عليه مجلس النواب الفرنسي واصفاً إياه بالرجل العبقري الذي يسعى إلى بناء مجده، حانيا بذلك حذو محمد علي بمصر (Roches, 1884, pp. 31-32).

ينظر ليون روش أنه في 25 أغسطس 1837 على الساعة التاسعة مساء امتطى حصانه مغادراً العاصمة، قاصداً الأمير (Roches, 1904, p. 36)، مستقيداً من البند الرابع من معاهدة التافنة الذي يمنح الحرية لأي مسلم كان العيش في المناطق التي يسيطر عليه الأمير عبد القادر أو القوات الفرنسية، وكان

"لقدور بن رويلة" دور كبير في بلوغ مرامه والتقاءه بالأمير الذي استبشر به خيرا وأدناء منه (مناصرية، 1990، ص ص. 23-26).

2.2.3. كتاب عشر سنوات في رحاب الإسلام

يعد كتاب عشر سنوات في رحاب الإسلام مصدراً مهمّاً بالنسبة للفترة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر وخاصة مقاومة الأمير عبد القادر، كون مؤلفه كان مقريراً من الأمير وأمين سره (دور الجاسوس)، لكن ما يثير الالتباس حول هذا الكتاب أن مؤلفه تفادي نشره في حياة الأمير عبد القادر، فلم ينشره إلا بعد وفاته بسنة أي سنة 1884، وهو ما يجعلنا نتعامل مع مضمونه بحذر (داعو، 2023، ص.154)، على غرار باقي المصادر الفرنسية التي كثيرة ما تجنب الموضوعية التاريخية.

يذكر ليون روش في كتابه عشر سنوات في رحاب الإسلام أنه استطاع أن يجعل الأمير عبد القادر يثق به ثقة كبيرة، الأمر الذي مكنه بأن يتولى مهمة التوجه إلى عين ماضي بتاريخ 12 جوان 1838 للتفاوض مع شيخها محمد الصغير التجاني، هذه المهمة التي كادت أن تكلفه حياته حسب قوله، وكانت برهاناً منه على إخلاصه للأمير (Roches, 1904, p. 120)، ولكن في حقيقة الأمر أن طلب روش التفاوض مع التجاني هو ظنه بأن هذا الأخير لن يسبب له الأذى كونه فرنسي ويعلم أن التجانية مهادنة للاستعمار، وهنا استغل الفرصة لبث سمومه وإشعال الفتنة بين الطرفين مخالفًا بذلك أوامر الأمير الذي أمره أن يخبر التجاني برغبته في جمع كلمة المسلمين لمحاربة الكفار المعتدين، لكن روش فعل العكس، حيث راح ينفخ في التجاني وبيوهمه بأن قصره عصي على قوات الأمير عبد القادر وجنته، وفي الوقت نفسه بث فيه الرعب وحذره من إصرار الأمير على حصار القصر وبلغ مقصدته ولو كلفه ذلك عقداً من الزمن (مناصيرية، 1990، ص. 29-30).

ب بهذه الخطة استطاع روش أن يكسب الطرفين وأن يرفع من مقامه عند الأمير عبد القادر الذي منحه وساماً بعد الحصار عرفاناً له على إخلاصه ومخاطرته بنفسه، وهكذا انطلت الحيلة على الأمير وازداد ثقة بليون روش (دراعو، 2023، ص.226)، الذي حقق هدفه باستزاف قوة الأمير وإشغاله عن محاربة فرنسا، وما يؤكد ذلك الرسالة التي أرسلها الأمير عبد القادر إلى التجاني بتاريخ 7 فيفري 1839 والتي تضمنت اعتذاره لشيخ الطريقة التجانية وإشارته إلى دور الفتانين في تأزيم العلاقة والوصول بها إلى الصدام العسكري، وفيما يلي نبرز نص الرسالة:

الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآلته وصحبه وسلم، وبعد إلى السيد محمد الحبيب ابن العلامة السيد أحمد التجاني. لقد وصلني جوابك الذي لا إماء (كذا) وبعد أن عجزت على الولوج داخل حصنكم وبعد أن أدركت حقيقتكم وعلمت أن ما دار بيننا هو وشایة فقط وتدخل الفتانيين بيننا ولهذا فإنني أرجو عفوكم عنا، وهذه هدية تصلكم وهي متواضعة مع ابنكم أحمد عساها تجدد الروابط الأخوية بيننا. من الفقير إلى مولاه (كذا) كثير الذنوب والأوزار عبد القادر محي الدين بن المصطفى بن المختار عامله بطشه بطشه في

الدنيا ودار الموتى. ثلات وعشرين من ذي القعدة عام أربع وخمسين ومائتين وألف السلام" (مناصرية، 1990، ص. 194).

هذه الرسالة لم تلق الآذان الصاغية، وما يؤكد ذلك تجدد الصراع بين الطرفين لاسترجاع عين ماضي، بعد أن استغل التيجاني تجدد القتال بين الأمير عبد القادر وفرنسا عقب نقض معاهدة التافنة، وكان له ما أراد حيث تمكن من هزيمة ممثلي الأمير وتحالف مع الفرنسيين، وبهذا تمكن فرنسا بفضل جاسوسها ليون روش من استغلال الخلاف بين الأمير والطريقة التيجانية لثبت أقدامها في الشمال والتغلب في اتجاه الجنوب الجزائري (دراعو، 2023، ص. 228).

كما يذكر روش أنه استغل العداوة الموجدة بين الأمير عبد القادر والتيجاني، وسعى إلى الاستثمار في هذا الصراع من خلال التعاون مع التيجاني، من أجل الحصول على فتوى تحريم على الجزائريين الجهاد ضد الفرنسيين، ومن أجل ذلك سافرا الرجال مع وفد إلى القيروان، ثم إلى مصر والجاز، أين تمكن روش من تحقيق مراده وذلك بعد أن وافق علماء الأزهر وشريف مكة على الفتوى التي حصل عليها في القيروان.

(Roches, 1904, pp. 232-269)

3.2.3. نقد وتقييم

ما لا شك فيه أن كتابات سانت آرنو تعد مصدرا هاما في دراسة مقاومة الأمير عبد القادر فهي توضح الأعمال العسكرية التي قامت بها القوات الفرنسية لؤاد المقاومات الشعبية، كما أنها تسلط الضوء على حلقة مهمة من حلقات مقاومة الأمير، إلا وهي الصراع الذي دار بينه وبين شيخ الطريقة التيجانية، لكن ورغم أهميتها إلا أن هذه الكتابات لم تتصف بالقدر ومقاومته، بل كانت منحازة وبوضوح فاقع إلى الشيخ التيجاني وأتباعه، كون ذلك يخدم المصالح الفرنسية خاصة وأن التيجانية أبدت مرونة تجاه الاحتلال الفرنسي منذ الولهة الأولى، كما أن آرنو قد صرخ أن هذا الصراع يخدم الإدارة الاستعمارية من كل الجوانب سواء من خلال انتصار التيجاني والقضاء على مقاومة الأمير، أو من خلال استنزاف قوة هذا الأخير حتى يسهل القضاء عليه بعد نقض معاهدة التافنة، ثم إن صاحب الرسائل يستعمل أحياناً كلمات تدل على مجانبته للموضوعية التاريخية عندما يصف الأمير عبد القادر بالمنتخ أحياناً وبالمحروم أحياناً أخرى.

من المؤكد أن كتابات ليون روش حول مقاومة عبد القادر عموماً وصراع الأمير مع التيجانية على وجه الخصوص مهمة جداً في معرفة جوانب كثيرة عن هذه المقاومة وزعيمها، فصاحبها كان أحد الفاعلين في هذا الصراع، لكن هذا لا يعني القبول بكل ما أورده المؤلف، خاصة إذا علمنا أن روش قد نشر كتابه "عشر سنوات في رحاب الإسلام" سنة 1883م، أي بعد وفاة الأمير عبد القادر بسنة، وهذا يبعث في النfos الريب والشك حول المعلومات الواردة فيه.

ثم إذا أمعنا النظر في بعض الكتابات الفرنسية نجدها تتندد بشدة ما ألفه روش، ومثال ذلك المؤرخ الفرنسي "مارسيل إيميريت" (Marcel Emerit) الذي نشر مقالاً في المجلة الإفريقية سنة 1947م ينتقد فيه

ليون روش ويرى أن كتاباته تحتوي على أكاذيب ومغالطات جمة، واصفا الرجل بصاحب الخيال الواسع، ففي قضية دخول عين ماضي على سبيل المثال نجد روایات تختلف ما قاله روش حولها، عندما ادعى توليه مهمة الحصار، فالمؤرخ الفرنسي (Nicolas Blanc) ينفي ذلك، ويؤكد أن خليفة الأمير مصطفى بن التهامي هو من فاوض محمد الصغير التجاني وليس ليون روش الذي اقتصرت مهمته هو ومجموعة من الضباط على مرافقة المفاوض "بن التهامي" إلى مقر الأمير عبد القادر (بن صحراوي، 2018، ص. 95).

ولعل ما يؤكد كلامنا السابق أن صاحب تحفة الزائر محمد بن الأمير عبد القادر في ذكره لمسألة التجاني ودخول عين ماضي لم يشر البته إلى ليون روش، سواء في الاستعدادات أو في السير إلى التيجانيين أو في الحصار والمفاوضات، فكل ما أورده أن تسلیم المدينة كان لخليفة الأمير عبد القادر الحاج مصطفى بن التهامي، وهنا نقول لو كان لروش دور مهم في هذه المسألة لما سكت عنه المؤلف، فمن غير المعقول أن لا يذكر القائد في أحداث مثل هذه (محمد بن الأمير عبد القادر، 1903، ص. 196).

إن حالة الصراع التي ميزت التيجانية والقادرية لم تشمل جميع الطرق الصوفية الأخرى، فالطريقة الرحمانية ببلاد القبائل كانت في ود مع الأمير عبد القادر، الذي كثيراً ما كان يتدخل لحل الخلافات التي نشببت بين الحاج البشير والسبدة خديجة زوجة علي بن عيسى المغربي المتوفى سنة 1837، وبهذا استطاع أن يعين خليفة له على منطقة القبائل وهو أحمد الطيب بن سالم، وأن يحظى بتقدير واحترام سكانها من شيوخ ومبراطرين وعامة، ففي إحدى زياته التي قام بها للمنطقة استقبل أحسن استقبال، ولما خاطبهم حول هدفه وأنه ما جاء إليهم ليسلط عليهم كما فعل الأتراك سابقاً بل لتأدية واجب الجهاد ضد العدو الفرنسي، كانوا له آذاناً صاغية ودخلوا تحت طاعته وقدموا له الزكاة والعشور مؤازرة لجيشه المجاهد، وتقدم رجالهم جنداً في سبيل الله يقودهم خليفته بن سالم، الذي قادهم لمهاجمة العدو الفرنسي في العاصمة وأحوازها في نوفمبر 1839 والحامية العسكرية في بودواو، وغيرها من المعارك. (بن معمر، بحري، وبن نعيمة، [د.ت.].، ص ص. 72-80).

خاتمة

من خلال دراستنا هذه وقينا على حقيقة استغلال المصادر الفرنسية المتمثلة في رسائل سانت آنو وكتاب عشر سنوات في رحاب الإسلام للصراع الطرقي، وذلك من أجل تثبيت أقدام الاحتلال في الجزائر وخدمة المشروع الاستعماري، إضافة إلى تشوية صورة المقاومات الشعبية وقادتها، ومن هذا المنطلق يمكننا القول أن هذه الكتابات لم تلتزم الموضوعية التاريخية في تطرقها لهذا للصراع الذي دار بين التجاني والأمير عبد القادر، بل عمدت إلى الاستفادة منه وتأجيجه، وهو ما تحقق لها في الأخير بعودة عين ماضي للتيجانية، والجدير بالذكر هنا أنه لو تمكّن الأمير عبد القادر من إقناع التجاني الذي كان يحظى بمكانة روحية وسلطة على الطرق التجارية الصحراوية، بالدخول تحت رايته لكان الأمر خلاف ما حصل.

إن المتمعن في الكتابات الفرنسية يدرك بعض هفوات الأمير عبد القادر، الذي أخذ الأمر بعاطفة مبالغ فيها أحياناً، سمحت للعدو الفرنسي أن يستغلها في إشغاله بصراع هامشي مع التجاني، حيث نرى أنه من

المبالغ فيه أن تسند مهمة حساسة كالتجوّه إلى عين ماضي لشخص حديث عهد بالإسلام لم يمض على فراره من الجيش الفرنسي سوى بضعة أشهر، فلو تمكن الأمير من كسب التجانى وأتباعه لكانَ الصورة مغايرة تماماً لما حدث، ولوجدنا كتابات مخالفة لما نقرأه الآن، وهذا الكلام الذي نقوله ليس انتقاداً من الأمير عبد القادر ومقاومته، بل هو رؤية من زاوية أخرى، قد يستفاد منها في التعاطي مع أحداث تاريخية مشابهة لها.

ما يجدر الإشارة إليه كذلك أن الطرق الصوفية في الجزائر لم تكن على قلب رجل واحد، فالتيجانية اتخذت من الدين غطاء لتبرير الاحتلال الفرنسي عندما قالت أن هذا الغزو قضاء وقدر، ولا فرار من قضاء الله، بل ذهبت أبعد من ذلك عندما مكنت العدو الفرنسي الصليبي من بسط سيطرته، عندما سعت إلى إصدار فتوى تحريم الجهاد ضد فرنسا، حتى تقرب إليها زلفا طمعاً في مكاسب دينية وسلطة روحية، كما أن الطريقة القادرية التي اتخذت موقف المقاومة في بداية الأمر وكانت ضد المشروع الاستيطاني هادنت فرنسا لاحقاً وحملت السلاح ضد إخوانها المقاومين.

التعليقات والشروحات

- قصر عين ماضي: يقع قصر عين ماضي في الأغواط وبالتحديد غرب المدينة، أقيمت قواعده في القرن الخامس للهجرة أداءً حكم العبيديين الفاطميين، ثم أخذ هذا القصر في التوسيع ليأخذ مكانة هامة على مختلف الأصعدة سواء في فترة حكم الأتراك العثمانيين وبدايات الغزو الاستعماري الفرنسي (بن التهامي، 2009، ص.327).

- زاوية القبطنة: تم تأسيسها سنة 1200هـ من قبل مصطفى بن مختار الغريسي جد الأمير عبد القادر بن محي الدين، تقع زاوية القبطنة بالقرب من معسكر، كانت منارة دينية وثقافية (قادورية الطريقة)، تولى شأنها محي الدين الذي ورث المشيخة عن والده الشيخ مصطفى، وأخذ يلقن الأتباع أوردها، كم بينهم ابنه عبد القادر الذي أخذ علماً وافرا على يد أبيه، ولقد بلغ شأن هذه الزاوية أن كان الناس يتسابقون في تزويدها بما تحتاج من المال (سعد الله، 1998، ص ص.513-514).

- لويس رين: هو لويس ماري رين، ضابط عسكري فرنسي ولد سنة 1838 بفرنسا، يعتبر رين من العسكريين البارزين الذين اهتموا بالزوايا والطرق الصوفية، شغل مناصب عديدة في الجيش الإداري الفرنسي، منها قائد فرقه المدفعية، مستشار للحكومة الفرنسية، ضابط جوقة الشرف، كان يتقن اللغة العربية الأمر سهل له التواصلم مع الجزائريين وأخذ شهادات حية من عندهم، من أهم مؤلفاته: كتاب مرابطون وإخوان (دراسة عن الإسلام في الجزائر) (موساوي، 2020، ص ص.292-293).

الببليوغرافيا

باللغة العربية

- بستي محمد، ومسعودي أمينة. (جانفي، 2022). مقاومة الأمير عبد القادر من خلال رسائل المارشال سانت آرنو 1837-1844.

مجلة دراسات وأبحاث: المجلة العربية للأبحاث والدراسات في العلوم الإنسانية والإجتماعية، 14(01).

- بن التهامي مصطفى. (2009). سيرة الأمير عبد القادر وجهاده. (يحيى بوعزيز، المحرر) الجزائر: دار البصائر للتوزيع.

- بن صحراوي كمال. (2018). موقف المؤرخ الفرنسي مارسال إيميريت من مذكرات ليون روشن. مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية(34)، الصفحات 92-103.

- بن معمر محمد، بحري أحمد، وبن نعيمة عبد الغفار. ([د.ت.]). دور الطرق الصوفية في مقاومة الشعوبية خلال القرن 19.

الجزائر: المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.

- تشرشل شارل هنري. (1974). حياة الأمير عبد القادر. (أبو القاسم سعد الله، المترجمون) تونس: الدار التونسية للنشر.

- تلمساني بن يوسف. (1998). الطريقة التجانية و موقفها من الحكم المركزي بالجزائر : الحكم العثماني- الأمير عبد القادر - الإدارة الاستعمارية "1782-1900". رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. الجزائر: جامعة الجزائر.
- حرازم براذه علي. (1997). جواهر المعانى وبلغ الأمانى فى فيض سيدى أبي العباس التجانى، ج1. بيروت: دار الكتب العلمية.
- حرشوش كريمة. (2008). جرائم الجنرالات الفرنسيين ضد مقاومة الأمير عبد القادر في الجزائر من خلال أدبياتهم "1832-1847" (نماذج). رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر. وهران: قسم التاريخ وعلم الآثار، معهد العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة السانيا.
- دراعو محمد. (2023). الأمير عبد القادر الجزائري في كتابات الفرنسيين إبان القرن التاسع عشر. أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه لـ د في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1962. تلمسان، الجزائر: قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد.
- زيزاخ سعيدة. (2014). الطريقة التجانية النشأة والتطور. مجلة العلوم الاجتماعية.(9)
- سعد الله أبو القاسم. (1998). تاريخ الجزائر الثقافي (المجلد 1: 1500-1830). بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- السهلي عبد الله بن دجين. (1426هـ). الطرق الصوفية نشأتها وعقائدها وأثارها. الرياض: دار كنوز إسبانيا للنشر والتوزيع.
- شيخ لعرج، وفغورو دحو. (2016). انتشار الطريقة التجانية في بايلك الغرب أواخر القرن 18 وببداية القرن 19 ونشاطاتها المختلفة. مجلة الحضارة الإسلامية.(29)
- القحطاني سعيد بن مسفر بن مفرح. (1417هـ). الشيخ عبد القادر الجيلاني وآراءه الاعتقادية والصوفية، ج1. رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العقيدة. مكة، السعودية: جامعة أم القرى.
- محمد بن الأمير عبد القادر. (1903). تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر (المجلد 1). الإسكندرية: المطبعة التجارية غرزوزي وجاويش.
- مناصرية يوسف. (1990). مهمة ليون روشن في الجزائر والمغرب 1832-1847، ص ص 14-15. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- موساوي مجذوب. (جاني، 2020). الزوايا والطرق الصوفية بالصحراء الجزائرية عند لويس رين. مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية، 01(03) باللغات الأجنبية

- Rinn Louis. (1884). *Marabouts et khouan: étude sur L'islam en Algérie*. Algérie: Adolphe Jourdan, Librairie-Editeur.
- Roches Léon. (1884). *dix ans a travers l'Islam 1834-1844*. Pris: Librairie Académique Didier.
- Roches Léon. (1904). *Trente deux ans a travers l'Islam 1834-1844*. Pris: Librairie Académique Didier.
- Saint-Arnaud Leroy. (1864). *Lettres du Maréchal de Saint-Arnaud 1832-1854*, 2éd. Paris: Michel Lévy Frères Libraires.